مرافق التعليم عند العرب

على عهد بني امية

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

كانت ايام بني امية بمعظمها ايام حروب وفتوحات ، فلم يتسنَّ فيها للملوك ان يصرفوا همهم الى احياء المعارف وانشاء المدارس ، واستغلال اثار انتصاراتهم بكمالها ، باقتباس العلوم عن الامم المغلوبة المتفوّقة عليهم بعمرانها ، كما تمّ ذلك على عهد الدولة العباسية . على انهم لم يهملوا امر التعليم ، ولعلّه كان على ايامهم ارسخ قدماً واكمن بالعروبة منه على ايام بني هاشم المترشدين بالاعاجم ايسلكوا العرب سبيل النور . لان ما بلغنا عن حالة التدريس ايام الدولة الاموية ، يفيدنا ان الناشئة كانت تتأدّب آنئذٍ بالآداب الجاهلية لقرب عهدها منها ، وكان القرآن بين يديها كتاباً تتعلّمه على اساتذة سذّج ، فتستغني به عن المؤلفات العلمية والفلسفية التي تهذّب عليها العرب فيما بعد ، أخذاً عن السريان واليونان والفرس ؛ وتكتفي به مؤونة الاجتهاد المملّ المتعب فلا تتكلف اكثر مما تحتاج اليه في عصر كان العرب ينصرفون فيه عن القلم الى السيف

وان البحث في ذلك الموضوع لطيّب مفيد ، وابواب مدارسنا مفتوحة ، وناشئتنا كبارها وصغارها متزاحمة على موارد التعلم حائمة حولها حوم النحل حول بيوت العسل ، والاهلون يودعون ابناءهم ويستودعونهم ارباب التثقيف والتهذيب

* * *

ان هدف التلامذة في طلبهم العلوم وكعبة آمالهم اليوم ، هي الشهادة على تنوّع درجاتها ، فتراهم لا يألون جهداً ، ويعملون آناء الليل باطراف النهار كدّاً ، استعداداً لامتحانات ينالون بها ، اذا نجحوا ، لقب «باشيليه او ليسانسيه او دكتور» وهذه هي السعادة التي لا مزيد عليها عندهم لمستزيد

ولم تجهل الشبيبة العربية على ايام بني امية لذة ذلك الانتصار جهلًا تامًّا ، فكان الشعراء اذا امتدحوا سيدًا اطرأوا صفاته الحسنى وعدوا في مقدمتها صفة العلم . والعالم المتهذّب عندهم سمّوه «الكامل»

قال ابو دهبل في مدحه ابن الازرق : (الاغاني ٦ : ١٦٥ ، ٩)

بابي وامي ، غير قول الباطل ، الكامل ابن الكامل ابن الكامل !
والحازم الامر الكريم برأيه ، والواصل الارحام ، وابن الواصل !
جمع الرئاسة والسماح كليهما جمع الجفير قداح نبل النابل

ترى ان الشاعر وصف صاحبه بالحزم ، والكرم ، والحنان نحو ذويه وسداد الرأي ، المقرون بالحلم اللائق بالزعماء ، وهذه الخصال والمحاسن الحميدة مجموعة ومتحدة في شخصه جمع السهام في جعبة الرامي . الّا انها دون المزية الشريفة التي ذكرها في مستهلّ الشعر وأردفها مغالاةً وتعظيماً فقال : «الكامل ابن الكامل ابن الكامل»

وما ادراك من هو الكامل ؟ انه الشاب العربي المتعلم القراءة ، والكتابة ، والرمي ، والسباحة .

قال ابن سعد في كتاب الطبقات (٣ : ٩١ ، ١٠) : « وكان الكامل عندهم في الجاهلية واول الاسلام الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي» ؛ وحبذا الكمال مطمحاً لبصائر الشبيبة . فما اعذبه موردًا وما اقربه منالًا لولا ما يعتور السالك اليه من عقبات تذللت في ايامنا ، لكنها كانت على ايام الجاهلية اكأد من ان يذللها غير الامراء والاعيان . فالرمي امره يسير عندهم ، وهم يرتاضونه منذ نعومة اظفارهم في الصيد ، ويجهدون النفس في اصابة الهدف حرصاً على صنعة اشتهر بها جدودهم ، منذ القدم ، والرماة التدمريون ذكرهم في تاريخ الرومان اشهر من نار على علم .

اما العوم او السباحة فأمرها مبهمٌ علينا . اين السباحة وليس في بلادهم ما يكفي مواشيهم ومزروعاتهم مؤونة العطش ! كيف السباحة في المدينة ونهر العقيق يسيل اياماً ويجفّ اشهرًا واعواماً ! كيف يعوم ابن آدم في مياه المدينة وليس فيها حياة للسمك ؟ لان ما رواه الحديث في ذلك الصدد

مردودة روايته . جاء في كتاب الاغاني (٢١ : ٢٧٢)

«خرج رجل من زقاق ابن واقف في المدينة ، بيده ثلاث سمكات قد شق اجوافها وقد خرج شحمها » ثم قال الراوي : « واحسب ان هذا الخبر مصنوع لانه ليس بالمدينة زقاق يعرف بزقاق ابن واقف ولا جا سمك . ولكن رويتُ ما رُوِيَ»

على ان الامر الذي لا يختلف فيه اثنان هو انتشار الكتابة العربية منذ القرون الميلادية الاولى ، مع رواج حركة الاسفار والتجارة وتواتر المعاهدات بين العرب ومريديهم من الشعوب جيرانهم . ثم ان الاكتشافات الحديثة قد اثبتت ان الخط النسخي على سهولته كان معروفاً منذ القرن الميلادي السادس . فتعلمت الناشئة العربية الخط بعد القراءة وهي في حاجة عظيمة اليه خاصة في المراكز التجارية مثل مكة والمدينة . ولم يكن الامراء يغنى عنها وديوان العطاء والمال والجباية هو قوام ملكهم واليه مرجع امرهم وكانوا لا يهتمون بشيء اهتمامهم به .

وكانوا يستعملون مختلف المواد من اوراق نباتية او جلود او عظام او اخشاب لرسم الحروف او نقشها ، فتحفظ للخلف اثار السلف . وان من تلك الآثار الشعر الجاهلي وفيه لباب العلوم الجاهلية ، غاية ما بلغ اليه من الرقي الذكاء العربي في تلك الايام . فقد خاض عباب العواطف والخواطر وولج كل باب من ابوابها فوصف وترسل وتغنى وتغزل ومدح وهجا ورثى ودوّن الاخبار وضرب الامثال ووضع الحكم وتناقر وتفاخر ، فكان مرجع الاساتذة في تعليم الناشئة .

* * *

ومن البديهي ان مواضيعه لا تصلح كلها على السواء لتثقيف العقول وتهذيب الالباب ، فلا بد من ان ينتقيها المعلم ويلتقط منها العواطف النبيلة والمبادي الجليلة التي يودّ كل اب وكل معلم صالح ان يلقي بذرتها في صدر ولده ، فتنمو وتزدهر بالمحاسن والمناقب .

تلك المحاسن كانت ناضرةً جميلة على ايام الجاهلية ، حيث لم يشوّه جمالها مشوه وهي ارث الجدود ومجدهم الاثيل اعني بها : مراعاة حقوق الجوار ،

واحترام المرأة ، وحفظ العهود ، والصبر على الشدائد ، والمروءة ، والكرم . فقد نبتت في صحراء الجزيرة واريافها نبات الشجرة في الارض الطيبة وظلت تثيفة الاوراق كثيرة الاثمار بديعة الظلّ طول تمتعها بنور سمائها وصفاء هوائها حتى عبثت بها ايدي الارديا، فذهبت ببهائها

واني لاتصوّر المؤدّب او المعلم موفقاً في جمع شتات تلامذته الحركين ، فيناديهم فيلتفون حوله كما تلتفّ الفراخ حول الدجاجة ؛ فيستملك اسماعهم وهم بالقرب من اهاليهم وتحت انظارهم ، والمدرسة تعقد اينما انعقد الجمع حول الاستاذ ؛ فيأخذ بتلاوة اشعار الاقدمين ، واعادة الابيات الواجب حفظها : فيشرحها ويترنم بها ويتمادى في التبسط في ذكر ما يقتطف منه ثمرة ادبية لاذّة مفيدة . فان اراد تعليمهم واجب التآلف بين الجيران والاتحاد والمدافعة بعضهم عن بعض ، دفعاً لغارات العدو او توقياً لمكروه ، وصف لهم حالة الثائه في الصحراء ، اذا ما دهمه الليل الحالك ، ولا معين لهُ ولا رشيد ، وقد يئس من الحياة واشرف على الموت ؛ لكنه رأى عن بعد نوراً فقزع اليه من الظلام واستبشر به الخلاص لان صاحب ذلك النور رجل صالح جواد كريم جدير بان يُقتدى به وان يُكثر الله من امثاله . فأنشد او قرأ لتلامذته شعر الحطيئة يمدح بني رياح (١

لئمَ الحيُّ حيُّ بني كليب اذا ما ارقدوا فرق اليناع
هم صنعوا لجارهم وليت بدا لرقاء مثلَ يد الصناع

او تغنى بشعر مسكين الدارمي (٢

ناري ونار الجار واحدةٌ واليه قبلي تُترَلُ القدرُ

ومنَ الآيات البديعة التي كان الاساتذة يتمثلون بها لتهذيب البنين ، وما احوجنا نحن اليها اليوم : حفظ العهود وانجاز الوعود . فيذكرون قول عبيد بن الابرص في قوم مدحهم (٣

كم فيهم من سيد أيد ذي نفحاتٍ قائلٌ فاعلُ

١) راجع ديوان الحطيئة طبعة غولزير ، ص: ١١٩
٢) راجع ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص: ٣٢٨
٣) راجع ZDMG 893, p. 168

من قولهُ قول ، ومن فعله فعل ، ومن نائله نائلُ

واي شعر اشد تأثيرًا في قلب الناشئة واسمى عاطفة من قول السموأل :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضهُ ، فكل رداء يرتديهِ جميلُ
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها ، فليس الى حسن الثناء سبيلُ
اذا سيد منَّا خلا ، قام سيدٌ قؤول لما قال الكرام ، فعول
وما ضرنا انا لنا دون طارقٍ ولا ذمنا في النازلين نزيلُ

وعلى الفتى الشجاع ان يحتمل برباطة جأش وقلب لا يهاب الشدائد ما لا بدّ للانسان من ان يحتمله من نوائب الدهر ، فيتسلّح عليها بالصبر وان الله مع الصابرين

صبرنا وكان الصبر منَّا سجيةً بأسيافنا يقطرن كفًا ومعصما (١)

وما أكرم عاطفة الاحتشام والاحترام التي يلقنها المؤدب تلميذه منبهًا الى واجب كف النظر والتحفظ لئلّا يزعج امرأة او فتاة . ذلك ما يذكرنا احترام الافرنج للمرأة ويفسر لنا السبب الذي من اجله كان امر السفور والحجاب غير معروف في الجاهلية

جاء في الكامل للمبرد عن رثاء الخنساء لاخيها (ص ٧٣٧، ١٦)

لم ترَه جارةٌ يمشي بباحتها لريبةٍ ، حين يخلي بيتهُ الجارُ

وايضًا من اقوال الحطيئة في مديح بني كلب :

ويحرمُ سرَّ جارهم عليهم ويأكل جارهم اكل القصاع

ومن اقوال مسكين ايضًا :

ما ضرَّ لي جارًا اجاوره ألا يكون لبابه سترُ
أعمى ، اذا ما جارتي برزتْ ، حتى يواري جارتي الخدرُ

وليس الشعر الجاهلي حافلًا بالمبادي الشريفة والآداب الانسانية الكريمة فقط بل هو مشحون ايضًا بما دوّن فيه الشعراء ، جوّابو البلاد ، مما رأوه ابان رحلاتهم في الشام واليمن وغيرها من الاقطار التي ضربت فيها قوافل العرب . فتعلم هؤلاء الشعراء امورًا كثيرة عن جغرافية البلدان واخلاق سكانها ، ثم عادوا الى الجزيرة ونفخوا معارفهم ببوق شعرهم الرنّان فاسمعوا الاعراب من التعاليم ما هيأهم لنبذ عبادة الاوثان ، والايمان بالله الاوحد . تلك الاسفار

(١) راجع شيخو : شعراء النصرانية (ص ٧٣٦)

كان يردّدها الاساتذة على تلامذتهم ومنها قول الاعشى في وصفه اسفاره في البلدان(راجع الهمداني: وصف جزيرة العرب: ٢١٤)

وطوّفتُ للمالِ آفاقَها عُمانَ ، وحمصَ ، فأورَشلَمْ
أتيتُ النجاشيَّ في داره ، وأرضَ النَّبيط ، وأرضَ العَجمْ
فنجرانَ ، فالسِّردَ من حِمْيَر ، فأيَّ مرام له لم أرمْ
ومن بعد ذاك الى حضرَمَوْ ت ، فأوفيت هي وحيّاً أمم

واختلط الشعراء في سفراتهم بالنصارى واليهود ، وتأثروا بمعتقداتهم واخذوا عنهم كثيراً من الحقائق الدينية وترنموا بها

على ان الشعر كان في نظر نبي المسلمين مادةً للمفسدة والفتنة لا تسوغها النفوس المتديّنة ، وهو فخ للمؤمنين وملهاة لهم عن تلاوة القرآن. قال الفرزدق لقوم لاموه على فتوره في الدين: «انتم تعرفون سجدة القرآن وانا اعرف سجدة الشعر» (الاغاني ١٤ : ٩٨) فكان على المؤدب ، في مذهبهم ، ان يتقي في تهذيب الصغار ذلك الخطر وان يدربهم على حفظ القرآن

* * *

لمّا تُلي القرآن على مسامع العرب اخذ الصحابة يستظهرون آياته ، ويدوّنونها في المخطوطات من جلود او اوراق نخل او قطع خشب او عظام ولم يكن امر كتابتها بالميسير لما كان عليه فن الكتابة من الانتشار في مكة ، كما قلنا سابقاً ، فضلاً عن ان احدى نساء محمّد حافظة امّ كلثوم كانت تفقه القراءة والكتابة. فمن المعقول ان محمّداً استعان بقلمها على كتابة الآيات المنزلة. وما لم يُكتب ويُحفظ من تلك الآيات على حياة محمّد وضاع في النساس فانهم لم يأسفوا عليه وقد جاء في القرآن ان «ما ننسخ من آية او ننسها نأتِ بخير منها»

ولكن لما قبض محمد ، نهض نُفَير الصحابة ، واخصهم ابو بكر وعثمان ، فعنوا بجمع القرآن ونشره فاصبحت آياته مرجعاً لعامتهم ولخاصتهم ، وهو دستور الحكم واساس الشرع عندهم

فكان من الضروري والحالة هذه ان يحفظ صاحب الدولة فيهم ما جاء في القرآن ، فيصبح اشبه بالمحامي المتمكن من معرفة نصوص الشرع ، المجابه

بهـا خصمه ؛ وان اقوى المحـامين اتقنهم لعلم الحقوق . فكان اذن اعظم الامراء واغلبهم احفظهم للآيات القرآنية . فمن ثم كان درسهـا وشرحهـا واستظهارها محتماً عليهم منذ نعومة اظفارهم . ومن رائع مـا رواه الطبري شاهداً على صدق كلامنا ، قوله : (٢ : ٣٧٦—٣٧٧)

«لما جلس يزيد بن معاوية دعا اشراف اهل الشام فاجلسهم حوله ، ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه ، فأدخلوا عليه والناس ينظرون فقال يزيد لعلي : يا علي ابوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت ، فقال علي (١ : « ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها » فقال يزيد لابنه خالد : « اردد عليه » قال فما درى خالد ما يرد عليه فقال لهُ يزيد قل (٢ « ما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم »

وكان الخليفة في بعض الحفلات العظمى يقف وقفة السلطان المنتدب من الجامعة الاسلامية الى منبر الملك . فيفتتح حفلات الوفود ويترأس الصلاة الجامعة . وكان الامراء الامويون يهتمون اشد الاهتمام بالقيام بتلك الوظيفة بغاية الأبهة والفخامة .

ومثلهم من بعدهم الخلفاء العباسيون الاولون . والمنبر للامير كالعرش للملك ، والميدان للفارس ، قال السيد الحميري مادحاً ابا العباس السفاح حين نزل عن المنبر (الاغاني ٧ : ٧)

دونكموها ، يا بني هاشم ، فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها ، لا على كبكب من كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها ، فالبسوا تاجها لا تدعوا منكم لهُ لابسا
لو خير المنبر فرسانه ما اختار الا منكم فارسا . . .

* * *

اما معلمو القرآن فكانوا يُدعون في اول امرهم « القرّاء » لكثرة الامين في ذلك العصر . على ان الآباء لم يرتاحوا طويلاً الى تسليم ابنائهم يد القراء بل عهدوا بتربيتهم الى المؤدب وكان المؤدب غالباً غير مسلم يتردد الى منازل تلامذته ، ويعلمهم بالقرب من اهلهم

١) (القرآن ٥٧ : ٢٢) ٢) (القرآن ٤٢ : ٢٩)

وربَّ مناقشة وقعت بين الاستاذ وتلميذه آل امرها الى استنجاد الصبي اباه على قساوة المؤدب . ولم يكن الاب ليتصر لابنه على المعلم . جاء في الكامل : (٢ : ١٤٦)

«كان مروان ايّاً عزيز النفس فدخل به على عبد الملك باكياً فضرب المؤدب اباه فشقّ ذلك على عبد الملك فاقبل عليه المقارجي فقال لهُ : دعه يبكِ فانه ارخب لشدقه ، واصح لدماغه ، واذهب لصوته ، واحرى ان لا تأبى عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرته .»

على ان عمر الثاني كان يحذّر المعلم من ان يبالغ في ضرب التلميذ وكان يقول : « يكفي في تخويف الغلام »

وقال عمر بن عتبة لمؤدب بنيه :

« علّم الاولاد كتاب الله ولا تملّهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منهُ فيهجروه . روّهم من الحديث اشرفه ، ومن الشعر اعفّه ، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم ، وعلّمهم سنن الحكماء ، وجنّبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر مني لك فقد اتكلت على كفاية منك . » (العقد الفريد ١ : ٢٧٦)

وقال « ليكن اول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك فان عيونهم معقودة بعينك . فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت »

وكما ان رؤساء المدارس يشرفون على التلامذة ابّان الدروس يستحثونهم على الاجتهاد ، كذلك كان عبد الملك بن مروان يقف على رأس بنيه ، وبين يديهم الكتب ، فينصحهم قائلاً :

« عليكم بطالب الادب فانكم ان احتجتم اليه كان لكم مالاً وان استغنيتم عنه كان لكم جمالاً (العقد الفريد ١ : ٢٧١)

* * *

فعلى ذلك المنهاج البسيط كان يسلك العرب ابناءهم سبيل المعارف ، فيبلغون « الكمال » باتقان الادب الجاهلي ومعرفة القرآن ؛ الى ان تعرفوا الى نوابغ الاساتذة من النصارى ، فسلموهم ابناءهم للتعليم(١

١) راجع شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (ص : ٣٨٩ وما بعدها)